ضباطنا

حادثة واقعيـــة

بكت احسان هانم بكاء انفطر له قلب ضابط المباحث القضائية ثم قالت له وهي تشرق بدموعها : انكم لم تعثروا على ابنتي الضائعة فاذا جئت تبغى مني ؟

فأجابها بحزن : عفواً يا سيدتي اذا آلمتك بحضوري . فقد نقل الضابط الذي نيط به أمر البحث عن المفقودين وحللت محله . فأمرت بأن أبذل عناية خاصة بهذا الأمر فأتيت اليك لأحيط بكل ما من شأنه أن يكون له مساس بابنتك . فهل لك أن تطلعيني على ذلك لأؤدي مهمتي على الوجه الذي تريدينه ؟

فكفكفت احسان هانم عبراتها المنسابة وقالت : ان ابنتي عدلات المفقودة لها من العمر ثماني عشرة سنة وهي جميلة الصورة كما يتبين لك من الرسم الذي معك . ممشوقة القد ، عفيفة القلب ، نقية الثوب ، تتلقى علومها في مدرسة الارسالية الفرنسية فتذهب اليها صباحاً و تعود مساء ، وكانت سلوتي الوحيدة في حياتي ، وغاية أملي من دنياي ، حتى اذا كان ذات يوم ذهبت فيه كعادتها لكنها لم تعد إلى ، وذلك منذ شهرين تقريباً . . قالت احسان هانم هذا واجهشت بالبكاء

فتأنى ضابط المباحث حتى هدأ روعها و رطبت الدموع سورة حزنها وسألها قائلا :

أتسمحين لي يا سيدتي بسؤال قد يثقل عليك لكني لا أرى مندوحة عنه ؟

فأجابت بصوت مختنق : تفضل يا سيدي

فقال الضابط و قد بدت الحيرة في وجهه : أما كان لابنتك صلات غرامية ؟

فانقبضت أسارير احسان هانم وأجابت بحدة : كلا يا سيدي ، فعدلات ملاك في صورة بشرية ، لا تهم نفسها بريبة و لا تجنح الى نكر مهما قوى الباعث على ذلك. واشتد التحريض

فقال : أليس لها صديقة أو قريبة تختلف اليها وتقضي وقتاً عندها ؟

فأجابت احسان هانم : لم أعودها مثل هذه الامور

فاكتفى الضابط بهذه الأسئلة وانصرف على أن يعود إذا احتاج الى استعلامات أخرى

ooo

جلست احسان هانم واهية القوى مضعضعة الحواس . فقد أضناها البكاء وبراها القلق وبرح بها النوى . فدخل عليها أخوها اسماعيل وهو شيخ رزين قد حنكته الأيام وعركته صروف الدهر فطفق يواسيها ويسليها ويحضها على الاستمساك بعرى الصبر حتى أدخل بصيصاً من الرجاء إلى قلبها الذى تظاهرت عليه البلايا فتركته بينها نهباً مقسما

فلما أنس منها اقبالا عليه واصغاء لكلامه أنشأ يقول : اصرفى يا أخية عنايتك الى ماهو أنفع لك من البكاء والنحيب. فالاستسلام لليأس المميت لا يرد لك ابنتك بل يرديك قبل ان تكتحل عيناك برؤيتها . ومن يدرينا فقد تعود اليك اليوم أو غداً فالله الذى بيده تصريف الامور قادر ان يجمعك بها فى أقرب وقت

فتطلعت اليه احسان هانم بفرح وقد استشفت الامل من خلال كلامه وصاحت بلهفة: يبدو لى من اقوالك انك تعرف شيئاً عنها فبالله عليك صرح لى بما فى نفسك . قال لى انها لم تزل على قيد الحياة

فقال : هذا ما ارجحه

فوقعت احسان هانم على قدميه صائحة : أين هى ؟ أريد أن اراها

فانهضها اسماعيل قائلا: مهلا يا اختاه فما قلته لم يخرج عن حد الحدث والتخمين . فلنفرض انها حية وانها لعوب ، كلفة بزخرف الحياة الخلاب ...

فلقاطعته بشدة صائحه : انى واثقة من عدلات فهى ارفع من أن تسلم مقادها لطيش الصبا ونزو الشباب

فقال: العصمة لله يا اختاه فلكل امرىء هفوة مهما سمت اخلاقه وحسنت مبادؤه . فقد تكون ابنتك خدعت وختلت وأنزل بها المكروه من حيث لا تدرى، فهل تصفحين عما فرط منها؟

فانتصبت احسان هانم واقفه كأن حية لسبتها وصاحت : اسماعيل ! اعرفك كثير الروية شديد الحذر ، لا تلقى الكلام جزافا فيخيل الى انك تريد الافصاح عن امر لكنك تلجأ الى التلميح دون التصريح . فهل وقفت على أثر لعدلات؟ وهل زاغت هى عن محجة الصواب؟

فاجاب أخوها ان ابنتك وجدت

فصاحت حمداً لك يا الهى ! ولكن خبرنى يا اسماعيل على اية حالة وجدت ؟

فقال تشددى يااختاه وتقبلى احكام القضاء بصبر وجلد فليس للانسان طاقة بدفعها واصفحى كما صفح على بك زوجك الان حالة ابنتك تستدر دماء القلوب لا دموع العيون

فصاحت وقد اعتمدت وجهها بيدها :أهذه هى الخاتمة التى كنت انتظرها ؟ ما كان يدور بخلدى ان شيبتي ستنزل الى القبر ملطخة بادران العار

فاقترب منها اسماعيل ونزع يديها عن وجهها قائلا صبراً يا أختاه فلست باول من نكب،ولا بآخر من ينكب، وها عدلات اقبلت معاليها فانظرى اليها ألا تأخذك الشفقة عليها وقد زوت نضارتها واختفت معالم حسنها وشحب لونها وانطفأ نصيص عينيها النجلاوين !

فتطلعت احسان هانم اليها ولما رأت ما آل اليه امرها من الضعف والهزال والذلة والمسكنة حتى اوشكت ان تعسر عليها معرفتها تحركت فى قلبها عاطفة الامومة ففتحت لها ذراعيها وضمتها الى صدرها صائحة ! ابنتى ! ابنتى !

لكن عدلات ما عتمت ان تملصت منها ونظرت اليها بحب وحنان وقد دمعت عيناها تأثرا وقالت بصوت متهدج :

لقد صفحت عنى ياماه كما صفح ابى . فرام حنانكما مداراة ماهتك من ستري. ولكن لئن تناول الصفح قلبيكما الرقيقين فلا اصفح عن نفسى ، فقد زلت بى قدمى فى مهاوى العار ولا ينتشلنى منها غير الموت.

فصاح ابوها وامها معاً: عدلات !

فاشارت اليهما بيدها ان يهدآ . وقد لمعت عيناها ببريق غريب واكدلونها واصفرت شفتاها وارتعشتا . فوقفت هنيهة صامتة وقد وضعت كفها على حشاها كأنها تسكن ما به واستتلت . لقد تفردت بالاثم فلا تفرد با لعقاب، ولكن ما اشد شقوتى عندما اتصور ما ستكابدانه من الآلام من جراتى:

فهما بمقاطعتها لكنها أوقفتهما باشارة قائلة: ان دقائقي معدودة واريدان اقف امامكما كما ساقف عما قليل أمام الديان العظيم . فاعترفا لكما بجرمى وذنبى لأنال صفحكما - على هذا يخفف من العقاب الالهى الذى ينتظرنى . فقد كنتما تعهدانى عفة نقية لا تنزع نفسى الى شر ، حتى اعترض دونى ذلك الضابط الذى اطلعت خالى وابى على اسمه فمانعته من نفسى

حيناً من الزمن دون ان اسمح له بمحادثتي لكنه عمد الى معسول الكلام ولجأ الى الخديعة والمكر مظهراً نيته الحسنة . مؤكداً لي انه لا يبغي غير التزوج مني — والزواج عند الفتاة هو غاية المنى ومطمح الامانى . فلا تكاد تسمع به حتى تأنس الى قائله وتقبل بكليتها عليه فتقع دون تروٍ ولا تبصر في الشرك المنصوب لها — وهذا ما جرى لي . فقد وثقت به حالما أبدى لي عزمه هذا وكنت اقابله عند ما اذهب صباحا الى المدرسة وتنزه معا عندما اعود منها مساء ، فاخبرني ذات يوم انه خاطب امه بشأني وهي تريد مشاهدتي فصدقته فاركبني سيارة وناولني أثناء الطريق قطعة من الحلوى فاكلتها دون ان يخامرني شك في أمرها فاذا فيها مخدر قضى على حواسي فسمت ولم استفق الا في احد مواخير الدعارة حيث وجدت نفسي ملطخه بدماء العار

ولما لفظت هذه الكلمه اضطرب صوتها وتلعثم لسانها واخذتها رعدة اهتز لها كل جسمها فصاح ابواها خوفا وجزعا فاشارت لهما بالسكوت وهي تمسك احشاءها بكلتا يديها وارتدفت بصوت متهدج يخفت من دقيقة الى اخرى

بعد ما تمزق ثوب عفافي — ذلك الثوب الذي هو زينة الفتاه وحليتها في هذه الحياة — أجبرت في بيت الفجور ان ابيع عرضي لكل مشتر فكنت اضرب اذا ابيت واعذب وأحمل من الجور والظلم مالا قبل لي به وانا اطلب الخلاص مما انا فيه فلا اجد اليه سبيلا لشدة الرقابة علي ، ولليقظة حراسي الذين يحفون بي . حتى اذا وجدت منهم غفلة بعد مضي شهرين قضيتهما في عشرتهم الممقوتة هربت وأخذت أسير على غير هدى معتزمة الفرار منكبا لكي لا تطلعا على عاري وشناري . حتى إذا أعوزني النصير في محنتي تطلبت معيناً يقوي عزيمتي الخائرة فوجدته في خالي اسماعيل . فسعيت اليه وأبديت له مكنون سري فرأف بي وجمعني بكما بعد ما نال صفحكما عني

وتوقفت عن الكلام وقد انحبس صوتها وجحظت عيناها وغار خداها واهتز ساقاها وتملكت عضلات وجهها تقلصات عصبيه ، فاستندت إلى الحائط وقد علت محياها صفرة الموت وطفقت تتلوى وهي قابضة على أحشائها بيديها . فضمت أمها وجذبتها إلى صدرها واسندها أبوها جزعاً فقالت لهما بصوت تقطعه تشنجات النزع :

الوداع يا أبي . الوداع يا أمي أعفوا عني واغفرا لي ما جنيته . فقد تجرعت

سماً زعافاً قبيل دخولى عليكما وها هو الآن يقطع أحشائى التى تحمل ثمرة العار

فصاحت أمها : ابنتى . لا تموتى فأنت سلوتنا الوحيدة ، فقد غفرنا لك وصفحنا عنك

فقالت : أشكركما من صميم فؤادى ، ولكن قد حم القضاء ولا مرد له

فصاحت احسان هانم بنسة : أتموتين وأنت فى هذه السن ؟

فأجابت : الموت نعمة لبنى البشر . فهو ليل هذا اليوم القلق المضطرب المسمى بالحياة . وفى غفوته تهجع إلى الأبد الأحزان والآلام والمخاوف التي تنهش قلب الانسان

وهنا خارت قواها وانخذلت قدماها فحملها والدها وخالها وأضجعوها على سرير واستداروا بها ، وهم يبكون ويتحبون ، فأخذت تتلوى من الألم ظهراً لبطن لكنها لا تزفر زفرة بل تطلعت الى أبويها بشغف وحنان محاولة تخفيف لوعتهما غير أن الأوجاع كانت تعقد لسانها ، فأكبت أمها عليها تقبلها مبللة إياها بدموعها بينما ذهب خالها لاستدعاء طبيب ، فأسندت رأسها على يد أبيها وألقت على والديها نظرة أودعت فيها كل ما يكنه قلبها لهما من حب وحنان . فصاحت أمها :

ابنتى . عدلات . أبقى لنا ، ارحمى ضعفنا وعجزنا فى شيخوختنا ، بل ارحمى شبابك وعيشى لتتمتعى بصباك

فنهضت على مرفقها مستمدة من الموت قوة ، وقالت بصوت يخرج همساً تتخلله شهقة النزع :

ان حياتى إذا عشت تكون مجلبة خزى وعار لكما ولى ، فلا يغسل إثم الفتاة العاثرة إلا الموت ، إذ أى شىء يجدر بها المحافظة عليه بعد ما فقدت طهرها وعفافها ؟

قالت هذا وضمت يديها إلى صدرها كأنها تستنزل عطف أبويها الأخير على نفسها الراحلة ثم مال رأسها وطارت روحها إلى خالقها شاكية جور الانسان وظلمه ؟